المحاضرة السادسة:الصراع الحضاري في الرواية العربية.

1-أنمـاط الرؤى و التمثلات والصور في روايات الأنا والغير:

تمتاز الرواية العربية منذ ظهورها في أواسط القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا بتجسيد ثنائية الأنا والآخر عبر مجموعة من الرؤى والأنماط والصور المتقابلة سواء أكانت سلبية أم إيجابية تترجم لنا ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الذكورة والأنوثة، وثنائية التقدم والتخلف، وثنائية العلم والجهل، وثنائية المادة والروح...ومن بين هذه الرؤى النمطية نذكر:

1-1-الرؤية الانبهارية:

نعني بالرؤية الانبهارية تلك النظرة الأولى للأنا وهي تتأمل منجزات الآخر المماثل أو المخالف، تلك النظرة الحائرة القائمة على الاندهاش والتعجب والاستغراب والانبهار بحضارة الغرب، والافتتان بتقدمه وازدهاره في شتى العلوم والفنون والتقنيات والمعارف والآداب، وغالبا ما تكون تلك النظرة في البداية فطرية ساذجة أو نظرة واعية نسبيا بالفوارق الموجودة بين الشرق والغرب أو بين المكان الأصل ومكان الغواية والجذب والافتتان، وذلك بسبب صدمة الحداثة أو صدمة الاستعمار، والتي تفرز بشكل جلي التناقضات الهائلة والتباين الشاسع والهوة الفاصلة بين عقلية متخلفة وعقلية متقدمة.

ومن النصوص الروائية العربية الأولى التي صورت جدلية الأنا والآخر من خلال رؤية انبهارية استعجابية واستغرابية، نستحضر رواية رفاعة الطهطاوي« :تخليص الإبريز في تلخيص باريز»والتي هي بمثابة رحلة يقوم بها طالب مصري إلى باريس في أواخر القرن التاسع عشر، فيصف جغرافيتها، ثم ينبهر بحضارتها وعلومها وفنونها وأنظمتها السياسية والدستورية والإدارية، ثم يعجب بسكانها وأخلاقهم ومنازلهم وصحتهم وتأنقهم وعاداتهم. ويعني هذا أن العمل الأدبي والإبداعي الذي كتبه رفاعة الطهطاوي عبارة عن رحلة روائية

تعليمية وتثقيفية تطرح رؤية انبهارية قائمة على تمجيد العقلية الفرنسية، مع الإشارة في نفس الوقت بالإحالة والتعريض والتلويح إلى تخلف العقلية الشرقية، وانحطاط الواقع العربي الإسلامي على جميع الأصعدة والمستويات.

1-2-الرؤية الحضارية:

بعد الرؤية الانبهارية بتفوق الغرب، والاعتراف بتقدمه علميا وفنيا وتقنيا في المرحلة الأولى من فترات القرن التاسع عشر الميلادي، نجد رؤية أخرى ستتشكل روائيا وفنيا وإبداعيا في العقود الأولى من القرن العشرين ، وذلك مع جيل من الكتاب الذين سافروا إلى الخارج لطلب العلم كطه حسين، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي، ويوسف إدريس، وسهيل إدريس... وآخرين، بيد أنهم لم ينبهروا بالغرب إلى درجة السذاجة السطحية والاستغراب الخارق الفاتن، بل تنبهوا إلى أسباب تقدم الغرب ماديا وتقنيا وعلميا وثقافيا وفنيا، ولكنهم تنبهوا أيضا إلى قيمة الشرق، وتميزه على مستوى القيم الدينية والروحانية، والدفاع عن أصالته وعاداته وتقاليده وحضارته وشرقيته.

والمقصود من كل هذا أن كثيرا من المثقفين العرب في بداية القرن العشرين قد انبهروا أيما انبهار بحضارة الغرب إعجابا وافتتانا وغواية، فانساقوا وراء نزواتهم الشعورية واللاشعورية،وبالتالي، كانت رؤيتهم للغرب على أنه رمز للحرية والعلم والتقدم والإشباع الغريزي لكل المكبوتات الظاهرة والدفينة، لكنهم سرعان ما استيقظوا من سباتهم، وذلك ليتعرفوا حقيقة الغرب المادي باعتباره فضاء حضاريا مخالفا عقديا وقيميا ودينيا وأخلاقيا واجتماعيا وثقافيا عن الفضاء الشرقي الروحاني، أن لكل بيئة مقوماتها الخاصة، فالشرق شرق والغرب غرب وهذا ما عبرت عنه الكثير من الروايات العربية بشكل

واضح وجلي كرواية الحي اللاتيني لسهيل إدريس، موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح والأيام لطه حسين و عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم.

توفيق الحكيم في روايته الرومانسية العاطفية العذرية »عصفور، فقد صور هذه الرؤية الحضارية المتفاوتة بين الشرق شرق متخلف وغرب متقدم، إلا أنه يعتبر الغرب فضاء للماديات والتفسخ الأخلاقي والانحطاط القيمي، بينما الشرق على العكس من ذلك، فهو رمز للروحانيات الطاهرة والقيم الدينية الفضلى والمثل العليا الأصيلة، والتي يصعب جدا تغييرها بالمعايير الكمية والمبادئ المادية، وترد هذه النظرة الحضارية التقابلية جلية إلى حد ما في كتابات جبران خليل جبران كما في كتابه الفلسفي ، والذي اعتبر الشرق بمثابة حل روحاني للغرب القيم المادي البرجماتي.

من جهة أخرى، تصور رواية «الحي اللاتيني »لسهيل إدريس العلاقة بين الشرق والغرب عبر تشغيل جدلية الذكورة (الشرق) والأنوثة(الغرب)، حيث تصبح المرأة هنا المحك الأساسي لهذه العلاقة الثنائية، وتتحول إلى رمز إنساني دال، فبطل الحي اللاتيني هو الأنا أو الشرق، بينما عشيقته جانين مونتيرو هي بمثابة رمز للآخر أو الغرب. لكن العلاقة بينهما تنتهي بالفراق والانفصال على الرغم من رباط الحب الصادق الذي كان يجمع بينهما ؛ والسبب في ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب. ويعني هذا أن بطل الحي اللاتيني لم يستطع الانسلاخ عن شرقه وجذوره وما نشأ عليه من أعراف وتقاليد، فقد استوعبت جانين جيدا هذا الاختلاف الحضاري على الرغم من أن عشيقها قرر الزواج بها، وذلك بعد أن عاتبه ضميره الحي حينما أنكر نسبة الجنين إليه، وأراد أن يقتاد بصديقه.

1-3-الرؤية العدوانية:

تستند الرؤية العدوانية إلى اعتبار الغير أو الآخر مخالفا أو مقابلا للأنا أو الذات. وبالتالي، فالغير يحاول تغريب الذات وإقصاءها وتهميشها، مع ممارسة العدوان والنبذ والحقد ضدها.فيصبح الغير هنا جحيما لا يطاق. لذا، تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي. وهذه النظرة العدائية السلبية غالبا ما تفرز حسب هيجل في حالة انتصار أحد منهما إلى ظهور ما يسمى بجدلية السيد والعبد.

وعليه، فالعلاقة بين الأنا والآخر لا تكون دائما علاقة إيجابية قائمة على الأخوة والمحبة والصداقة والتعايش، بل قد تكون علاقة سلبية قائمة على الكراهية والعدوان كما نجد ذلك في رواية فدوى طوقان الرحلة الأصعب، التي تحمل صورة عدائية للآخر مبنية على النبذ والاحتقار والازدراء، ويعني هذا أن شخصية الرواية المحورية شخصية فلسطينية تعرضت كباقي شعبها للتشريد والتعذيب والتغريب والعدوان والطرد من أرضها المحتلة بسب مكائد الغير أو الآخر الصهيوني المستغل لذلك، تولدت في نفسيتها مشاعر الحقد والكراهية والعدوان تجاه الآخر، ألا وهو الصهيوني المحتل الظالم والغاشم، ومن هنا، فنص فدوى طوقان الرحلة الأصعب هي سيرة ذاتية ذهنية يختلط فيها التاريخ بالأدب، والتوثيق المرجعي بالمعطى الأدبي والنقدي، كما أن هذه السيرة هي سيرة المقاومة والصمود والنضال والتوثيق للكتابة الأدبية بفلسطين المحتلة بعد نكسة حزيران.

من ثم، تحمل هذه الرواية الأطوبيوغرافية في طياتها رؤية سلبية قائمة على الصراع الجدلي والعدوان الوجودي و الكينوني والحضاري والديني بين الذات الفلسطينية والآخر الصهيوني، وينطبق هذا الحكم على الكثير من الروايات الفلسطينية، وخاصة روايات غسان كنفاني، ولاسيما روايته الرائعة:عائد إلى حيفا.

2-خصائص رواية الأنا والآخر:

ما يلاحظ على رواية الأنا والآخر أنها ترتكز على مجموعة من الخصائص والمقومات والثوابت البنيوية ، والتي تجعل منها جنسا أدبيا متميزا في نظرية الرواية في أدبنا العربي الحديث والمعاصر، ومن بين هذه الثوابت التي تميز هذه الرواية نستحضر ما يلي:

-التقابل بين الشرق والغرب على المستوى المادي تارة وعلى المستوى الثقافي والروحاني مرة أخرى.

-استعراض جدلية الأنا والآخر ضمن علاقاتهما الإيجابية والسلبية.

-حضور تيمة السفر والارتحال؛ مما يقرب هذه الرواية من أدب الرحلة.

-هيمنة الخاصية السياحية المقرونة بالانبهار والاندهاش؛ وذلك بسبب التفاوت الحضاري بين الشرق والغرب.

-تحول جدلية الأنا والآخر من مرحلة الانبهار والاندهاش والتعجب إلى المساءلة الحضارية والسياسية لإشكالية التقدم والتخلف المتعلقة بالشرق والغرب.

- تعدد الأنماط السردية المرتبطة بجدلية الأنا والآخر: الرواية، الرحلة، السيرة الذاتية....

-تشغيل المرأة رمزا حضاريا للتأشير على ثنائية الشرق والغرب.

المراجع:

جميل حمداوي: صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، الأزمنة الحديثة، عدد4/3،أكتوبر، 2011 https://revues.imist.ma/index.php/Alazmina-Alhadita/article/view/3835/2787